المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:07، العدد:01 (2023)، ص561-571

مصطفى الأشرف موقفه من الإسلام وتصوره للاشتراكية في مشروع الثورة التحريرية الجزائرية من خلال كتابه: "الجزائر الأمة والمجتمع"

Mostefa El-ACHERAF: His position about Islam and his conception of socialism in the project of the Algerian liberation revolution from the book "Algeria: aNation and aSociety"

حياة رحايلي
جامعة المسيلة (الجزائر)
hayetrehaili@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/11/23
تاريخ القبول:
2023/03/17

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الإسلام
- ✓ الاشتراكية
- ✓ مصطفى الأشرف
- ✓ الوطنية

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تناول موضوع مهم ضمن موضوعات تاريخ الجزائر المعاصر وهو تصور مشروع الدولة والمجتمع في فكر النخبة المثقفة الجزائرية وبالتحديد مصطفى الأشرف كنموذج لجيل من المفكرين الجزائريين الذين عاشوا خلال الفترة الثورية وفترة ما بعد الاستقلال، وقد اخترنا تتبع موقفه من الإسلام والاشتراكية من خلال كتابه الشهير "**الجزائر الأمة والمجتمع**" من يدرس بعمق هذا الكتاب يمكن أن يرى بوضوح هيمنة الإشكالية الثقافية والأيديولوجية واللغوية والوطنية على المحتوى وهذا يعود إلى رغبة صاحبه في اتباع أسلوب التحديث والانفتاح على مجالات الهوية والثقافة والذي لا يكون حسبه إلا من خلال دراسة جادة لوقائع المجتمع قبل تبني أي أيديولوجية.

Article info

Received:
23/11/2022
Accepted:
17/03/2023

Key words:
- ✓ Islam
- ✓ Socialism
- ✓ Mustafa Al-Achref
- ✓ nationalism

Abstract:

This study aims to address an important topic within the topics of the contemporary history of Algeria, which is the perception of the state and society project in the thought of the Algerian intellectual elite, specifically Mustafa Al-Achref as a model for a generation of Algerian thinkers who lived during the revolutionary period and the post-independence period, and we have chosen to track his position on Islam and socialism through his book The famous "**Algeria, nation and society**" Whoever studies this book deeply can clearly see the dominance of the cultural, ideological, linguistic and national problem over the content, and this is due to the author's desire to follow the method of modernization and openness to the areas of identity and culture, which can only be achieved through a serious study of the realities of society before adopting any ideology.

مقدمة

ظل موضوع أيديولوجية الثورة الجزائرية محل تجاذب وجدل وسجال واسع بين جمهور المفكرين والمنظرين والمؤرخين الجزائريين منهم والفرنسيين، الذين انقسموا على أنفسهم كلٌّ يحلّل حسب نظرته وفكره ورأيه، فالدارس لهذا الموضوع يجد نفسه بين فريقين متناقضين في الأفكار والأسس والبنى، فالثورة كما كانت غنية بأبطالها وقادتها العسكريين، كانت كذلك ثرية بمنظريها ومؤطريها ومهندسيها السياسيين الذين اخترنا من بينهم مصطفى الأشرف باعتباره نموذجا مخضرما لجيل من المفكرين الجزائريين الذين عاشوا مرحلة الثورة ومرحلة ما بعد الاستقلال، لتكون له مساهمات تنظيرية كبرى في مواثيق الجزائر المستقلة سواء في ميثاق طرابلس 1962 أو في ميثاق 1976، ومن هنا تكمن أهمية التعريف بهذا الرجل المثقف والمناضل المنظّر.

وقد اخترنا تتبع موقف مصطفى الأشرف من الإسلام والاشتراكية في مشروع الثورة باعتبارهما أهم تصورين في المشروع الوطني، فالإسلام أحد أركان المجتمع الجزائري والمحرك الأساسي والمسيّر الروحي له رغم اختلاف مكوناته وانتماءاته السياسية، وكذا روافده الفكرية، وكون الاشتراكية مذهب وفلسفة ومشروع كان يمثل طموح الشعوب المضطهدة والكادحة لتحسين أوضاعها ومحاربة المستعمر، ولدراسة الموضوع اخترنا كتابه الشهير "**الجزائر الأمة والمجتمع**" الذي يضم مجموعة من المقالات كتبها على مرحلتين –الفترة الاستعمارية وما بعد الاستقلال– ليكون ركيزة لهذه الدراسة التي ستبحث في مواقف الرجل الفكرية.

إن دراسة شخصية مصطفى الأشرف وموقفه من بعض القضايا الحسّاسة في تاريخ الجزائر، يفرض على الباحث أن يتعرض لحياة هذا المؤرخ والبيئة الذي عاش فيها وذلك لما كان لها من تأثير على مكونات الشخصية وتوجهاته السياسية والأيديولوجية وذلك لمعرفة مشاربه وروافده الفكرية والسياسية.

1. مصطفى الأشرف: السياسي والكاتب

ولد مصطفى الأشرف بقرية سيدي عيسى في 7 مارس 1917م (غانم، 2003، ص210)، وهو سليل أسرة جمعت بين التحضّر والعراقة، لأن والده كان خريجا للمدرسة الثعالبية أين زاول دراسة عليا جادة في الفقه المالكي والفقه المقارن على المذاهب السنية الأربعة في منطقة الحضنة، وأمه من أسرة دزيري التي كانت تشغل مكانة متوسطة في البرجوازية القديمة بمدينة الجزائر –حسب وصفه (الأشرف، 2007، ص 288–290).

انزوى الأشرف لحفظ القرآن الكريم عند شيوخ المدرسة القرآنية، وعندما تحصل على الشهادة الابتدائية كان قد قرأ مجموعة من الكتب التي كانت بحوزة أبيه ككتاب العبر لابن خلدون وجبران خليل جبران وغيرها... كما اهتم بالأدب الفرنسي فطالع كذلك الكلاسيكيات الفرنسية (غانم، 2003، ص 210).

أتيحت له فرصة الخروج من حياة البداوة والالتحاق بالحياة الشبه حضرية إذ التحق بالجزائر العاصمة لإكمال تعليمه الثانوي، فالتحق بثانوية بن عكنون في أكتوبر 1930م وهو مزوّد برصيد ثقافي من الشعر الجاهلي والأساطير الإغريقية وحكايات ألف ليلة وليلة وغيرها، فكان دائما من بين الخمسة الأوائل في الدراسات الأدبية (صاري، 2007، ص 90).

نظرا لتعرضه لمشاكل في الإقامة وعدم قدرة أبيه على التكفل بمصاريفه، غادر الأشرف ثانوية بن عكنون والتحق بثانوية الجزائر كطالب خارجي في أكتوبر 1932م، وتكفل صديق والده بتوفير الإقامة له، فسجل نفسه في مدرسة الشبيبة وهي مدرسة خاصة يُديرها الشاعر العربي محمد العيد آل خليفة (الأشرف، 2007، ص 387) وبعدها اضطر كذلك مجبرا لترك الثانوية في العاصمة والعودة إلى مسقط رأسه بسيدي عيسى، وذلك لظرف ألمّ به حينها، وهنا يسرد في كتابه أعلام ومعالم كيف أن الوالد نصحه بسلك نفس المسلك والتسجيل في الثعالبية التي زاول بها شخصيا دراسته والتي تطورت بشكل ملحوظ (1934-1940) (الأشرف، 2007، ص 413).

تابع دروسه لاحقا في جامعة السوربون لنيل شهادة الليسانس في الآداب وشغل منصب أستاذ للغة العربية بإحدى ثانويات مدينة مستغانم ثم أستاذا في ثانوية بمعسكر (بوصفصاف، 2013، ص 313).

انخرط مصطفى الأشرف في عدة تنظيمات سياسية وكتب في صحفها، بداية من 1939م في حزب الشعب الجزائري وتكفل بمهمة الإشهار والدعاية، إذ كتب مقالات في مختلف المجالات السياسية الاقتصادية وكذا التاريخية، التي نشرها في جريدة حزب الشعب جريدة البرلمان الجزائري، وجريدة الحركة الوطنية، وفي 1948م ترك التدريس وأصبح الأمين العام للكتلة البرلمانية لحركة الانتصار، وساهم في تحرير جريدة النجم الجزائري وهي اللسان الناطق باسم فدرالية فرنسا لحركة انتصار الحريات الديموقراطية (بوصفصاف، 2013، ص313)، كما كتب في جرائد مختلفة في الفكر والأدب والسياسة والنقد والمجتمع، ومن الكتابة الصحفية انطلق إلى الكتابة في مجالات الفكر والأدب وعلم الاجتماع، حيث كتب ونشر كتبا في تخصصات ومواضيع مختلفة تمحورت أكثرها حول مقومات الشخصية والهوية الوطنية الجزائرية من إسلام وقومية وأمازيغية (النصر، 2014).

التزم الأشرف الحياد التام وقت أزمة حركة انتصار الحريات الديموقراطية، إلى أن التحق بالجبهة فكتب عدة مقالات للتعريف بالقضية الجزائرية ودعوة مختلف التيارات والأحزاب الأخرى للانضمام إليها باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، ساهم بعدة مقالات في جريدة المقاومة منها مقال بعنوان: "**حقائق عن جبهة التحرير الوطني**"، وكذا كانت له مساهمات في مجلة Les temps moderns لجون بول سارتر منها مقال عنوانه: "**كيف واجه المثقفون الجزائريون الاحتلال الفرنسي**" (نعيمة، 2013، ص 171).

في نهاية سبتمبر 1956م غادر الأشرف مقر سكناه الكائن بباريس نهائيا وتوجه إلى اسبانيا حيث اتصل بخيضر الذي اقترح عليه الانضمام للجنة الرسمية التي ستتوجه إلى تونس بهدف المشاركة في اجتماع قادة الجبهة مع الزعيمين المغربي والتونسي إذ تعرضت الطائرة التي كانت تقله والزعماء الأربعة (بوضياف، آيت أحمد، خيضر، بن بلة) للاختطاف والقرصنة، ثم أطلق سراحه بعدها في أواخر 1961م نتيجة أوضاعه الصحية، ووضع تحت الإقامة الجبرية، لكنه تمكن من الفرار للقاهرة ومنها إلى تونس (غانم، 2003، ص212).

بعد الاستقلال عين كمدير لجريدة المجاهد، ثم سفيرا للجزائر في الأرجنتين في 1965م ثم سفيرا في البيرو، وبعدها وزيرا للتربية والتعليم الابتدائي والثانوي سنة 1977-1979م، ثم سفيرا في المكسيك سنة 1979م،

كما تولى تمثيل الجزائر في منظمة اليونيسكو في 1982م إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1986م وبعدها عينه الرئيس محمد بوضياف عضوا في المجلس الوطني الانتقالي سنة 1992م، وعلى الرغم من تقلبه في كل هذه المهام والمناصب السياسية إلا أن الأشرف على حد تعبير الأستاذ عبد الكريم بوصفصاف: "**ظل المثقف المسيّس الذي كرس قلمه السيال لخدمة القضايا الوطنية السياسية والثقافية على حد سواء**" (بوصفصاف، 2013، ص 314).

صدر له في عام 1965م كتابه المهم "**الجزائر الأمة والمجتمع**" في علم الاجتماع التاريخي وقد تم إعادة نشره في الجزائر سنة 1988م، وبعد اشتغاله سنوات عديدة في التأريخ الاجتماعي للجزائر وفي الكتابة النقدية والأدبية، أرّخ الأشرف لسيرته الذاتية حيث انكب على التأريخ لحياته الزاخرة بالأحداث والذكريات في كتاب "**أعلام ومعالم –مآثر عن الجزائر المنسية–**" الذي صدر عن منشورات القصبة بالجزائر عام 1998م، في حين أن آخر ما نشر الأشرف كتاب: "**القطيعة والنسيان**" عام 2005م (النصر، 2014).

2. الإيديولوجية الثورية بين مصطفى الأشرف وآخرون

يرى مصطفى الأشرف بأن جبهة التحرير الوطني حركة تجديدية وليست استمرارية أو تواصل لأي حركة أخرى، ويعني هنا حركة انتصار الحريات الديموقراطية التي كان مآلها الانهيار والتشرذم التام –حسبه–، كما يضيف بأن من يرى جبهة التحرير سليلة هذا الحزب الممثل للتيار الثوري إنما هو جاهل بنوعية هذه الحركة التي استطاعت أن تضم إلى صفوفها خصوم حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية إذ انحازت لها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاتحاد الديموقراطي للبيان الجزائري وحتى المتجنسين المسلمين الحكوميين (الأشرف، 1983، ص 165)، وهو رأي فيه اختلاف وتباين واضح مع ما ذهب إليه قادة ونخب ومفكري الثورة الجزائرية الذين أكدوا أن جبهة التحرير الوطني استمرارية وامتداد للتيار الثوري في الجزائر كما قال بوضياف: "**لا تظنوا أن ثورة أول نوفمبر قد سقطت من السماء**"، وهو بهذا يقر بأن الجبهة مرتبطة ارتباطا وثيقا بما سبق أول نوفمبر 1954م (قاسمي، 2008، ص75).

ونحا سليمان الشيخ نفس المنحى مؤكدا على مبدأ التواصل والتواتر بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية مبرهنا ذلك بأن كل رجال نوفمبر التاريخيين هم رجال الحركة الوطنية وأن قطيعة الجبهة معها كانت مع أفكارها الإصلاحية والترقيعية فيقول: "**أن رجال نوفمبر 1954م ليسوا برجال أفكار بقدر ما كانوا رجال عمل استمدوا معارفهم وخططتهم من رصيد النضال الوطني ضد المستعمر وبذلك فإننا نؤكد أن رجال نوفمبر 1954 الذي ربوا داخل النظام الاستعماري وداخل الحركة معا سينجزون قطيعة مع الأحزاب الوطنية ومع عملها الإصلاحي باتجاه العمل الثوري المسلح المباشر**" (الشيخ، 2002، ص 73).

لكن الرأي المتوازن –في رأينا–فيما يخص طبيعة ثورة الفاتح من نوفمبر هو أن جبهة التحرير الوطني اعتمدت على إرث وزخم الحركة الوطنية مستفيدة من إيجابياتها وانتصاراتها المحققة، ومتخلصة من سلبياتها وعثراتها المتكررة، فهي إذن حركة قديمة جديدة لم تولد من العدم بل من رحم أيديولوجية الحركة الوطنية.

أما فيما يخص مسألة التنظير الفكري للثورة الجزائرية وما إذا كانت ثورة أو مجرد حرب فذهب الأشرف إلى أن الفكر الثوري لم يهدف إلى الاستقلال السياسي فحسب بل حمل إرهاصات الثورة الاجتماعية "**وأن حربا كهذه ما قامت عبثا، بل هي حرب من أجل انتصار القومية، وقد ضمت إلى صفوفها جماهير الفلاحين المتمسكين بأرض بلادهم، وضمت أيضا الوطنيين المدركين لما يكتسيه النضال القومي من طابع جزائري صرف**" (الأشرف، 1983، ص 190)، وهو ما يؤكده "**غي برفيي**" الذي أقر بأن أيديولوجية جبهة التحرير الوطني كانت تهدف إلى تغيير الوضعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للجزائريين تغييرا جذريا وشاملا (privillé, 1997, p235)، ويوافق الأستاذ محمد بجاوي مصطفى الأشرف في هذا الطرح مؤكدا على: "**أن ثورة التحرير الوطني إذ تقود معركة التحرير إلا أنها في نفس الوقت تدير ثورة وهذا ما يوضح طبيعتها الحقيقية، أن هدفها الأساسي هو إنهاض الدولة الجزائرية سيدة نفسها وبناء جمهورية ديموقراطية واجتماعية**" (بجاوي، ص 119).

كما يرفض مصطفى الأشرف بأن تبقى هذه الأيديولوجية وهذا الفكر ضمن إطار التنظير فقط دون الخروج إلى الواقع المعاش فيقول: "**إن التصور المذهبي للمستقبل أمر طبيعي جدا في نطاق الحركة الثورية، ولكن على شرط أن يندمج في رؤية منظمة ومخططة للمستقبل، وهذه الرؤية المستقبلية تستلزم الجمع بين التحليل والتفكير النظري من جهة والشروع في التطبيق التدريجي من جهة أخرى، أما إذا أحدث شرخ بين الممارسة والتنظير في المشروع الثوري ولم تنزل هذه النظريات إلى أرض الواقع فإنها لن تتعدى أن تكون أضغاث أحلام فحسب**".

أما فيما يخص الإطار البشري الذي احتضن الثورة فيؤكد الأشرف بأنه متنوع فهو يضم "**العنصر الجزائري**" وهم أحرار الجزائر المؤمنين بالحرية والاستقلال، "**العنصر الفرنسي الأصيل**" الذي يقصد به هنا مختلف القوى الفرنسية التي وقفت مساندة للثورة الجزائرية، "**العنصر الشمال افريقي** " الذي ساند الثورة أيما مساندة وقدم لها كل أوجه الدعم المادي والمعنوي فضلا عن الدعم الذي لقته الثورة في باندونغ والشرق الأدنى (الأشرف، 1983، ص 190).

وأيا كان الأمر فإن مصطفى الأشرف ينادي إلى نبذ ما سماه "**بالتضخم البطولي**" الذي استفحل أمره في الثورة الجزائرية، ويعني به هنا التفاخر بالبطولات واستعمال الشعارات الملهبة للنفوس المضخمة للأحداث مصارحا بعض الضّالين –حسب قوله – بأنهم لا يستحقون أي مكافئة على بطولاتهم، لأنهم فعلوا ذلك من باب التضحية والفداء والواجب وليس عليهم التصرف وكأن الثورة أو الدولة حق من حقوقهم الشخصية يتصرفون فيها أنى شاءوا (الأشرف، 1983، ص 395–396).

كما أبدى رأيه في الأزمة التي دخلت فيها الجزائر غداة الاستقلال قائلا بأن ما حدث تقليد لأسلوب العدو وأن العمل السياسي والفكر الإيديولوجي للثورة قد تعطل نتيجة هذه الأزمة، التي سببها الأول والأخير هو التسابق نحو السلطة عوض الانشغال للتخطيط لمؤسسات الدولة، فالثورة حسبه أصبحت مجرد "**حركة آلية**"،

وصفة الآلية تتجلى في تبني التسيير العسكري للبلاد وإعطاءه كل الصلاحيات للتصرف في أحوالها وبهذا يكون المشروع الثوري معرض للفشل (الأشرف، 1983، ص 396).

وهو رأي يتوافق مع ما أتى به فرحات عباس في كتابه الاستقلال المصادر إذ رأى بأن السلطة الفردية ووضع جميع السلطات في يد شخص واحد يلغى صفة الديموقراطية من البلاد، ويكرس النظام الديكتاتوري ويصادر حق الشعب فالثورة يقوم بها الشعب للشعب، فهي ليست شخص واحد وليست لأجل شخص واحد، الشعب يقوم بها لمصلحة جميع أفراده، وهو ما يعد تعطيلا للفكر والعمل الثوري، وينتج أشخاصا "**كالروبوتات**" ويحكم عليهم بعدم التفكير، فحرية التعبير والتفكير سيحرم منها أفراد الشعب (عباس، 2015، ص 72-73).

3. موقفه من الإسلام في مشروع الثورة التحريرية الجزائرية

لقد أفرزت البنية المجتمعية للمجتمع الجزائري مع بداية العشرينات اتجاهين أساسين متنافرين يختلف كل منهما عن الآخر: الاتجاه المعرب المحافظ الذي كان خريجو الأزهر والزيتونة ينظرون له، والاتجاه التحديثي أو التغريبي كما يحلو للبعض تسميته والذي يمثله خريجو المدرسة الفرنسية الذين كان الأشرف من بينهم، وهو ما يفسر مختلف مواقفه الفكرية التي تتجه عموما إلى الدعوة إلى الحداثة والتفتح، حتى فيما يتعلق بالدين والعقيدة.

فيختلف الأشرف عن باقي المؤرخين مثلا في منظوره للإسلام على أنه العامل الأساسي والمحرك الرئيسي للجزائريين سواء خلال الثورات الشعبية أو الثورة التحريرية فهو ينتقد كل من يرى بأن الشعور الديني أو التعصب الإسلامي هو وحده الذي جعل الجزائريين يلتفون للذود عن البلاد، وهو لا يشكك في هذا المقام بأنه كان للعاطفة الدينية دور هام في البداية ولكنها ليست وحدها الدافع للكفاح ضد المستعمر بل هناك عوامل أخرى سياسية، اجتماعية، أيديولوجية، وعاطفية جعلتهم يقفون في مناهضة الإمبريالية والاستعمار، لأن التسليم بقضية التعصب الديني نفي -حسبه-لكل شعور ووعي سياسي للجزائريين الذين كان لهم احتكاك واتصال وتبادل للأفكار مع المشرق وأوربا مما وسع في أفقهم السياسي وجعلهم يؤثرون على جماهير الشعب، وضرب مثال هنا بالسي حمدان بن عثمان خوجة وسي أحمد بن الطاهر (الأشرف، 1983، ص 47-49).

إذا فالعامل الديني حسب صاحب كتاب الأمة والمجتمع لم يكن له دور أساسي في الحروب التي خاضها الجزائريين لتحقيق الاستقلال وإلا فما تفسير التمرد الذي قادوه ضد الدولة الحاكمة قبل الاحتلال على الرغم من كونها تحكم باسم الدين الإسلامي وهم يعتبرون رعايا فيها؟ فالأشرف يرى بأنهم فعلوا ذلك استجابة لشعورهم بأنهم ينتمون لتلك البلاد، إذا كانوا يشعرون بالحاجة لثورة سياسية لا دينية (الأشرف، 1983، ص49).

ويرى في هذا المقام أيضا بأن الثورات التي قام بها الجزائريين كانت مجرد حرب دفاعية لإنقاذ الأمة الإسلامية التي كانت مهددة من طرف عدو أجنبي دخيل، وإعلان بعض الزعماء للجهاد ما كان إلا لحشد الناس ضده (الأشرف، 1983، ص 50).

وحتى يتضح أكثر رأي الأشرف في مسألة دور الإسلام في الحروب التي خاضها الشعب الجزائري وفي مسألة التعصب الديني، نورد دليله القاطع الذي ينفي به دور الدين كعامل في تحريك الشعب الجزائري فيقول بأن

الجاسوس ليون روش استطاع الحصول على فتوى من علماء مكة والقيروان تدعوا الجزائريين لوقف القتال والاستسلام بدعوى أنها حرب غير متكافئة وأن مواصلتها ستجر لعواقب وخيمة، لكن الجزائريين لم يخضعوا لها وواصلوا مقاومتهم بشكل أشد عنفا على الرغم من أن الفتوى صادرة من كبار علماء الدين في تلك الفترة (الأشرف، 1983، ص 104).

ويزيد الأشرف بأنه إذا سلمنا بهذا الطرح –أي أن الجهاد هو من قاد الجزائريين للمقاومة والثورة ضد الاستعمار – فماذا ترانا نفكر حسبه في الصليبية الحاقدة التي كانت تظهر وتطفوا من تصرفات القادة الفرنسيين فهم أثبتوا أن حربهم ضد الجزائر ماهي إلا حلقة من حلقات الحروب الصليبية وكيف نفسر ما اصطلح على تسميته "**برسالة فرنسا التبشيرية**" فإذا كان ما حرك الجزائريين جهاد فهو على الأقل جهاد مشروع يواجه صليبية حاقدة (الأشرف، 1983، ص51)، إذ عمدت فرنسا منذ أيامها الأولى لاحتلال الجزائر إلى محاولة طمس ومسخ معالمها الثقافية والحضارية عن طريق عدة تدابير كانت ترمي من خلالها إلى تدمير وضرب الإسلام في جوهره والتعدي على مقوماته رغم تعهدها في اتفاقية الاستسلام مع الداي حسين بعدم المساس بشعائر المسلمين وديانتهم (collot, 1987, p309)، وكانت تهدف من وراء ذلك إلى مراقبة الدين الإسلامي وشؤونه بغية القضاء على أي تهديد منه (Ageron, p32)، وعليه فقد اعتبرته فرنسا عائقا أمام سياستها الثقافية ومهمتها الحضارية(pautermat, 2003, p76)، وهو ما جعل الجزائريين في المقابل يتمسكون بدينهم اكثر حفاظا على هويتهم من أساليب المسخ المسلطة عليهم(fazy, 1901, p395).

مما سبق نستنتج من كلام الأشرف بأن الطابع الديني لم يكن وحده سمة المقاومة والثورة الجزائرية ضد المستعمر وانما هناك طابع أقوى وأشد هو الطابع القومي الذي حركه وعي سياسي وفكري واجتماعي لدى نخبة جزائرية أثرت وتأثرت بالجماهير الشعبية العريضة.

وهو رأي يخالف ما ذهب إليه جملة من المفكرين فيرى محمد حربي مثلا بأن الوطنية والقومية الجزائرية وان كان لها دور هام في تحريك الجماهير الجزائرية فهي لم تغلب على دور الدين والعقيدة، فيقول: "**أبرزت السنوات الأولى لمقاومة الاحتلال قوة الوطنية الجزائرية ولا حاجة إلى إنكار الطابع الديني الغالب على هذه الوطنية ولا إلى إسدال رداء القومية عليها لتقريرها والاعتراف بأهميتها، ألم يكن الإسلام هو الإطار الذي تجد فيه مؤسسات الدولة والمجتمع شرعيتها ومعناها**" (حربي، 1999، ص 76)، ويذهب الزبيري أبعد من هذا إذ أقر بأن المقاومات الجزائرية مدعومة من المسجد ومصدرها هو الزوايا (الزبيري، 1999، ص 13)، إذا فالطابع الديني حسبهما يبقى السمة الأولى للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي.

وعلى صعيد آخر يرى مصطفى الأشرف بأن الهوية الوطنية في الجزائر والمتمثلة أساسا في الإسلام والعروبة هي مجرد حركات مرحلية –حسبه–لكن دورها يجب أن ينتهي بتحقيق النصر والاستقلال، لأن استمرارها يشكّل: "**العقبة الأساسية للتقارب العالمي...**" الذي ينبغي أن يظهر في ميادين الثقافة والحياة الاجتماعية والاقتصاد والسلوك المدني وعلى الأخص في عقليات الأفراد، تلك العقبات التي لها أثر بالغ في تغيير القيم

السائدة في المجتمع (الأشرف، 1983، ص 442-443)، لأن التمسك بهذه الطبيعة الخصوصية يؤدي إلى الانسحاب من الركب العالمي، رغم كل الجهود التي يقوم بها المجتمع الجزائري للتخلص من التخلف واللحاق بالمجتمعات الأخرى، وهو ما يقودنا لطرح جملة التساؤلات التالية: **هل التخلي عن هويتنا وديننا ولغتنا شرط من شروط تقدمنا؟ أم أن اللحاق بركب التقدم والحداثة والتخلص من الرجعية منوط بالتنكر لها؟ وهل التمسك بالدين بعد الاستقلال عامل من عوامل التخلف والتمسك بالماضي وعنوانا للرجعية؟**

ربما نجد الإجابات لهذه الأسئلة ولو ضمنيا فيما كتبه الأشرف والذي أطلق عليه لغة الدنيا ولغة الأخرة، لأن العربية حسبه ترتبط بالسمو الروحي في الآخرة "**أي الدين الإسلامي**" وكل ما في الأمر حسبه أنه "**هناك حاجة ماسة إلى أداة ينتفع بها الجزائري ويحل بها مشاكله**" ويقصد هنا الفرنسية قطعا (الأشرف، 1983، ص430). إذن فهو يبحث عن ثقافة جديدة فرضها الواقع وكذا الظروف.

وقد ذهب الأشرف أبعد من هذا إذ انتقد "**الأفكار الصوفية** " التي أدخلتها الطرقية و"**التزمت**" و"**التصلب في السلوك والأخلاق**"، ويرى بأنه تيار مناهض للتقدم في عالمنا العربي بالذات علينا محاربته "**إن كل هذه الأمور ينبغي أن تجعلنا نبادر إلى العمل بكل جد لتحديث الحياة الاقتصادية والمرافق الاجتماعية في البوادي ومحاربة الخرافات والأباطيل بكل أشكالها وذلك بإنقاذ الطفولة الدارسة في الدرجة الأولى وتمكين الجميع من التعليم الصحيح المتشبع بأحدث التيارات في المجتمع المعاصر**" (الأشرف، 1983، ص 408).

كما أشار إلى ظاهرة باتت ملحوظة في مجتمعنا سماها "**الدين كخطة للعمل السياسي**" وهي تعني استعمال المعتقد كركن من أركان السياسة مما يجعل المسؤولين يرجعون إلى الأخلاق لإيجاد حلول لمعظم المشاكل التي تواجه المجتمع، هذا الاتجاه الذي اعتمد على ظاهر القضايا لا باطنها لذا فهو يرى بوجوب تغيير هذه العقليات المبتذلة لبناء مجتمع ما بعد الاستقلال (الأشرف، 1983، ص450-451).

وهي الفترة التي ازدادت فيها الأمور خطورة حسب صاحب كتاب اعلام ومعالم وذلك بسبب ما عرفه المجتمع من سلوكيات دخيلة مستقاة من المظاهر الخارجية للدين الإسلامي، غير أنها في واقع الأمر هي مجرد اقتباسات تبتعد كثيرا عن بساطة الدين التي تتجلى داخل النفوس المؤمنة (الأشرف، 2007، ص 52-53)، وتدل على عدم فهم هؤلاء للشريعة الإسلامية، بل أكثر من هذا إهانة لكرامة الإنسان ونوع من التصلب والتحجر الفكري (الأشرف، 1983، ص 396).

4. تصوره للاشتراكية في مشروع الثورة التحريرية الجزائرية

كان مصطفى الأشرف من بين أعضاء اللجنة التي اشتغلت على صياغة برنامج طرابلس الذي انعقد في جوان 1962م-والتي تكونت من محمد حربي، بن بلة، ابن يحي، عبد المالك تمام، محمد يزيد ورضا مالك – والتي طغت عليها البصمة اليسارية إذ كان فاعلوها متشبعين بالفكر الاشتراكي اليساري مع تفاوت طفيف من شخص لآخر فقط (قاسمي، 2008، ص 42)، هذا الميثاق الذي أسال الكثير من الحبر واتهم بالعقوق والانحراف عن مسار الثورة وذلك لتبنيه النهج الاشتراكي -على حساب المبادئ الإسلامية – كنظام للحكم في

الدولة الجزائرية المستقلة "أن الثورة الديموقراطية الشعبية تشييد واع للبلاد في إطار مبادئ اشتراكية وسلطة في أيدي الشعب "(النصوص، 1979، ص 77)، لذا فلا ريب أن نجد هذا الطرح يقدم من طرف الأشرف في كتابه " الجزائر الأمة والمجتمع " وبقوة فهو يقر صراحة بان "**الاشتراكية**" هي الاختيار الحتمي الصحيح الذي يجدر بالدولة وبالحزب أن يعملا ما في وسعهما من أجل تعميقه وتعميمه (الأشرف، 1983، ص 29).

فهدف الاشتراكية هو تحقيق مجتمع جماعي لا طبقي، حيث يحل التضامن الاجتماعي مكان الملكية الفردية والثراء الشخصي، مما يؤدي إلى ثراء المجتمع ككل والتطور المنسجم لأفراده (ماندل، 1974، ص: 160)، وهو ما نادى إليه الأشرف الذي يرى بأن الاشتراكية الحقيقية ليست مجرد شعارات وخرافات سياسية أو الاعتقاد "**بالمهدي المنتظر**" القادر على حل كل المشاكل وهو الاعتقاد الذي يستند على مذاهب دينية مختلطة بالاشتراكية (الأشرف، 1983، ص 400).

فالاشتراكية في واقع ما بعد الاستقلال يجب أن تدخل حيز التطبيق الحق والخروج من التنظير إلى الممارسة وذلك مشروط بالعمل "**وفق رؤية منظمة ومخططة للمستقبل**" هذه الرؤية حسبه تستلزم الشروع في التطبيق التدريجي وإلا فهي لن تتعدى أن تكون مجرد "**اضغاث أحلام**" وتتحول بعدها إلى سلوك فوضوي ومجحف، وتبقى مجرد أفكار يتغنى بها فقط (الأشرف، 1983، ص 404-405) بل هي تقضي بناء مجتمع "يكون فيه للشبيبة وللجماهير الشعبية المكان اللائق بهما لكي تحقق مطامحها الثورية (الأشرف، 1983، ص 446).

ويرى الأشرف بأن النهضة الاشتراكية لن تتحقق إلا بالنهوض بالصناعة أولا وانتهاج طريق الرقي بكل أشكاله(الأشرف، 1983، ص 10)، وهو ما يناقض ما جاء في ميثاق طرابلس الذي يرى بأن التصنيع وخلق سوق داخلية يتوقفان فقط على القيام بثورة حقيقية في الحياة الريفية والثورة الزراعية مهمة أولية (النصوص، 1977، ص90) كما أن العمال هم من عليهم تسيير البلاد، وذلك يكن بعد توعيتهم وتحصينهم من سيطرة الطبقة البرجوازية المتمسكة بالبيروقراطية الغوغائية، ومن ثمة تسليمهم مقاليد الأمور، على أن يتعاونوا في الحكم مع طبقة أخرى متوسطة تسعى لخدمة مصالح البلاد والعباد (الأشرف، 1983، ص 36)، وهو الأمر الذي أثار حيرة فرحات عباس وجعله يطرح تساءل موضوعي ومنطقي هو: "**هل يمكن للطبقة العاملة في الجزائر حكم البلاد وتسييرها حاليا، وأين هم إطارات هذه الطبقة العاملة ومفكريها؟ " فينفي بذلك قدرتها على تسيير البلاد**" (عباس، 2015، ص 71-72).

ويزيد الأشرف على أنه قبل الدخول في تطبيق أي نهج على أرض الواقع يجب تقييم الوضع السائد في البلاد وتقويم حيثيات المجتمع الجزائري المحروم، وتعميق النظرة في مختلف المشاكل السائدة لذا يجب القيام بعمل مزدوج يستهدف واقع المجتمع الجزائري من جهة وإعادة النظر انطلاقا من هذا العمل من جهة أخرى بعد التصحيح والتدقيق والتحقيق في كل الجوانب (الأشرف، 1983، ص 405-406)، فتجربة "**التسيير الذاتي**" مثلا لم تحقق هدفها الاجتماعي المنشود لأنها لم تندرج في إطارها السياسي الرحب والواسع فهي لم تستطع التملص من رأسمالية الدولة والبيروقراطية التي تهدف للارتزاق المشبوه (الأشرف، 1983، ص 35).

خاتمة

بعد الانتهاء من هذه الدراسة نعرض أهم ما توصلنا إليه في النقاط التالية:

طغيان الإشكاليات الثقافية والعقائدية واللغوية والوطنية على مضامين كتاب الأمة والمجتمع، ويبدو أن سبب ذلك هو رغبة الأشرف في انتهاج أسلوب الحداثة والتفتح في مجالات الهوية والثقافة.

يرى مصطفى الأشرف أن الإسلام لم يزد على كونه عاملا محفزا للحروب التي خاضها الجزائريون ضد الاستعمار فقط، وأن الطابع الذي غلب على المقاومة الجزائرية هو الطابع الوطني والقومي الذي حرّكه الوعي السياسي.

الهوية الوطنية –العروبة والإسلام–مجرد حافز مرحلي فقط يجب أن ينتهي دوره بتحقيق النصر والاستقلال وإلا فإن استمرارها يؤدي للتخلف عن ركب العالمية ويشكل عقبة في وجه التقارب مع المجتمعات الأخرى.

انتقد الأشرف ما أسماه بالدين كخطة للعمل السياسي والتي تستعمل الدين كركن من أركان السياسة وتوظيفه لأغراضها الدنيوية، ويرى بأن الاشتراكية هي المنهج الأمثل لبناء الدولة الجزائرية المستقلة وأن الاشتراكية الحقة لا تتحقق إلا بالنهوض الصناعي.

كما يرى الأشرف بأنه يجب دراسة واقع المجتمع قبل تبنّي أي مذهب أيديولوجي وذلك لمعرفة حقيقة الأوضاع السائدة قبل التطبيق.

قائمة المراجع:

1- الأشرف، مصطفى، (1983)، **الجزائر الأمة والمجتمع**، تر: حنفي بن عيسى، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

2- الأشرف، مصطفى، (2007)، *أعلام ومعالم: مآثر عن جزائر منسية*، تر: أحمد بن محمد بكلي، الجزائر، دار القصبة للنشر.

3- بجاوي، محمد، (؟)، **الثورة الجزائرية والقانون 1960-1961**، تر: علي الخش، الجزائر، دار الرائد للكتاب.

4- بوصفصاف، عبد الكريم، (2013)، **تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، الجزائر، دار الهدى.

5- جريدة النصر.

6- حربي، محمد، (1999)، **سنوات المخاض**، تر: نجيب عباد وصالح المثلوني، الجزائر، موفم للنشر.

7- الزبيري، محمد العربي، (1999)، **تاريخ الجزائر المعاصر 1954-1962**، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

8- الشيخ، سليمان، (2002)، **الجزائر تحمل السلاح –دراسة في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة**، تر: محمد حافظ الجمالي، الجزائر، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال.

9- صاري، جيلالي، (2007)، **بروز النخبة المثقفة الجزائرية (1850-1950)**، تر: عمر المعراجي، الجزائر، منشورات الوكالة الوطنية للنشر والإشهار.

10- عباس، فرحات، (2015)، **الاستقلال المصادر 1962-1978**، تر: محمد رباحي وبن داود سلامنية، الجزائر، منشورات الجزائر للكتب.

11- غانم، محمد، (2003)، **مصطفى الأشرف وثورة التحرير**، الجزائر، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية جامعة منتوري.

12- قاسمي، يوسف، (2008)، **مواثيق الثورة الجزائرية**، قسم التاريخ، جامعة باتنة، الجزائر.

13- ماندل، أرنست، (1974)، **مدخل إلى الاشتراكية العلمية**.

14- نعيمة، سلاف، (2013)، **النخبة المثقفة والسلطة في الجزائر "مصطفى الأشرف نموذجا"**، قسم العلوم السياسية، جامعة وهران، الجزائر.

15- Ageron, Charles robert, (), **Histoire de l'Algérie contemporaine**, paris, PUF.

16- Collo, Claude, (1987), **les institutions de l'Algérie durant la période coloniale**, Alger, office des publications universitaires.

17- Fazy, Edmond, (1901) **l'avenir de l'islam questions diplomatiques et coloniales**.

18- Guy, Privillé, (1997), **les étudiants Algériens a l'université française**, Alger, éditions Casbah.

19- Pautermat, pascal, (2003), **la politique musulmane de la France au XXe siècle**, Paris, Maisonneuve et la rose.